ثالثاً : تكاليف الوالدين بواجب التربية

يولد الطفل على الفطرة ، يفتح عينيه على الحياة ليرى أمه وأباه يحوطانه بكل شيء ، وينظر إلى الوجود من خلالهما ، ويبصر الكون بأعينهما ، ويستقر في قرارة نفسه أن الأب والأم هما كل شيء في العالم ، فيستمد منهما العطف والحنان ، ويتوجَّه إليهما للحماية والرعاية ، ويلجأ إليهما في كل صغيرة وكبيرة ، وتنساب أسئلته بالاستفسار كالسيل المدرار ، حتى يعجز كثير من الآباء والأمهات عن الجواب ، ويقنع الولد بكل جواب ، ويُصدق ـ بجزم ودون ريب ولا شك ولا تردد ، ولا تحفُّظ ولا مناقشة ـ كل ما يسمع من والديه ، مهما كانت الأفكار سخيفة أم رائعة ، كاذبة أم صادقة ، ويكون عقل الطفل في مرحلة الطفولة الأولى كالطين ، يمكن للأب أن يشكله كما يشاء ، وتكون نفسه كالصفحة البيضاء ، تخطُّ فيها الأم ما تشاء ، وتثبت عليها ما تريد ، ويمتاز الطفل ـ في هذه المرحلة ـ بحبِّ التقليد والمحاكاة ولتحركات والديه وتصرفاتهما ، لذا يتحمَّل الوالدان المسؤولية الأولى عن تصرفات أولادهما في الصغر ، كما يتحمَّلان المسؤولية الأولى عن التربية والإعداد والتثقيف والتوجيه لما يُحبه الله ويرضاه ، وقد خصَّهما رسول الله ﷺ بهذه المسؤولية في الحديث الصحيح : « **والرجل راع على أهل بيته ، وهو مسؤول عنهم . والمرأة راعيةٌ على بيت بعلها وولده ، وهي مسؤولة عنهم** »[1] .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم برقم (١٨٢٩) .

فالمسؤولية على الوالدين عظيمة ، وتترتب عليهما نتائج خطيرة في الدنيا والآخرة ، فيلتزم الوالدن أن يُنشِئا أولادهما على الإيمان الكامل ، والعقيدة الصحيحة ، وأن يعوّداهم على التكاليف الشرعية ، والآداب الإسلامية ، والأخلاق الفاضلة .

وإن إعداد الجيل المؤمن الصالح يقع على عاتق الآباء والأمهات أولاً ؛ لأنَّ الطفل ينظر إلى والديه وكأنهما المثل الأعلى ، ويلتف حولهما ، ويطرح عليهما الأسئلة ، ويعتقد أنهما يحوزان العلم اللدني ، وأنهما كل شيء في الوجود ، فهما الأنا الأعلى بالتعبير التربوي الحديث ، ويتلقَّى الطفل منهما في بدء حياته كل توجيه ، لقناعته الكاملة بكل ما يقولان ، وتسيطر على أحاسيسه تعابير والديه ، ولا يقتصر الأمر على التوجيه المباشر ، بل يقلِّد والديه في أشياء كثيرة ؛ سواء كانت حسنة أم سيئة ، بطريق مباشر أم غير مباشر ، ويستحوذ على فكره اللاشعوري كثير من تصرفات الوالدين في الرضا والغضب ، في الحبِّ والكره ، في السعادة والشقاوة ، وإن هذه الظروف العامة المحيطة ، والقناعة المطلقة ، لا تتوفر في أي مرحلة من مراحل التربية كما تتوفر للطفل في أسرته ومع والديه ، بالإضافة إلى الدوافع الفطرية بالمحبة المتبادلة ، والتضحية اللامتناهية مع الآباء والأمهات لأولادهم ، وأنهم أمل المستقبل ، وسبيل البقاء والاستمرار ، لذلك كانت مسؤولية الوالدَيْن في التربية أولَ المسؤوليات وأهمَّها أمام الله تعالى .

وقد صرح رسول الله ﷺ بوظيفة الوالدين في تربية الأولاد ، فقال عليه الصلاة والسلام : « **كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يُهوِّدانه ، أو يُنصِّرانه ، أو يُمجِّسانه** »[1] ، وخاطب رسول الله ﷺ الآباء والأمهات

(١) رواه مسلم ، وأبو يعلى في مسنده ، والطبراني في الكبير (فيض القدير : ٥/ ٣٣) .

ومن يقوم مقامهم في تطبيق الأحكام الشرعية المتعلقة بتربية الأولاد ، فقال عليه الصلاة والسلام في مجال التربية البدنية مثلاً : « **علِّموا أولادكم السباحة والرماية ، والمرأة المغزل** »[١] ، ورغَّب رسول الله ﷺ الوالدين بتأديب الأولاد ، وأنهما يكسبان الأجر والثواب عند رب العالمين ، فقال عليه الصلاة والسلام : « **ما نحل والدٌ ولداً أفضل من أدب حسن** »[٢] ، وعن جابر بن سَمرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **لأن يؤدِّب أحدكم ولده خيرٌ له من أن يتصدَّق كل يوم بنصف صاع على المساكين** »[٣] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قالوا : يا رسول الله! قد علمنا ما حقُّ الوالد ؛ فما حقُّ الولد ؟ قال : « أن تحسن اسمه ، وتحسن أدبه » ، وقال عبد الله بن عمر : « أدّب ابنك ، فإنك مسؤول عنه ، ماذا أدّبته ، وماذا علمته ، وهو مسؤول عن برّك ، وطواعيته لك » .

فإن تخلَّى الآباء والأمهات عن ذلك فقد لحقهم إثم كبير ووباء عريض ، ونالوا خسارة جسيمة ، وخانوا الأمانة التي وضعها الله في أيديهم ، وأضاعوا الوديعة التي كلَّفهم الله بحفظها ، وتحمَّلوا مسؤولية ذلك في الدنيا والآخرة ، لذلك حذَّر القرآن الكريم الآباء والأمهات من ذلك ، ونبَّههم إلى خطره وأنهم مسؤولون عن أهلهم كمسؤوليتهم عن أنفسهم بترك المعاصي وفعل الطاعات ، فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦] .

قال الإمام علي كرم الله وجهه : « أي : علِّموهم وأدِّبوهم » ، وقال

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر (فيض القدير : ٤/ ٣٢٧) .
(٢) رواه الترمذي ، والحاكم عن عمرو بن سعيد (فيض القدير : ٥/ ٥٠٣) .
(٣) رواه الترمذي عن جابر بن سمرة (فيض القدير : ٥/ ٢٥٧) .

الحسن البصري : « مُروهم بطاعة الله ، وعلِّموهم الخير »[١] .

قال بعض أهل العلم : « إن الله سبحانه وتعالى يسأل الوالد عن ولده يوم القيامة قبل أن يسأل الولد عن والده ، فوصية الله للآباء بأولادهم سابقة على وصية الأولاد بآبائهم ، قال تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء : ٣١] .

وقال تعالى : ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء : ١١] .

وقال رسول الله ﷺ : « **اعدلوا بين أولادكم في النحل كما تحبون أن يعدلوا بينكم في البر واللطف** »[٢] .

* * *

(١) انظر : تفسير ابن كثير : ٤/ ٣٩١ (تحفة المودود ، ص٤٣١ ، طرق تدريس التربية الإسلامية للأستاذ الدكتور محمد الزحيلي ، ص٢٩ وما بعدها) .

(٢) رواه الطبراني في الكبير ، وابن حبان عن النعمان بن بشير (فيض القدير) .